

## الفصل الأول

## اقتلهم جميعاً

«أنا هنا من أجل المال»

- الجنرال الأفغاني ضياء لودين مخاطباً وكالة  
الاستخبارات المركزية الأمريكية

«الحل هو أن تدعهم يقتل بعضهم بعضاً»، هذا ما قاله لي الرجل المسن المفعم بالحيوية والنشاط، الذي يقيم في ويندبريكر، في أثناء تناولنا طعام الإفطار المكوّن من عجة الفيسستا المضاف إليها المزيد من فلفل الهلابينو الحريّف في مطعم فلوريدة وافل هاوس. ثم أشار بيده إلى الأعلى وأضاف، «أرسل الأقمار الصناعية والتقط الصور. وأبق على فرق العمليات الخاصة في الجبال، على بعد خمسين ميلاً من المدن، ثم تسلل في الليل ونفذ المهمة، اقتلهم؛ وليكن القتل على غرار ما فعلنا في ألمانيا. امح المكان عن وجه الأرض، ولا يكن في نفسك حرج من قتل الأبرياء؛ حتى النساء والأطفال منهم».

هذه هي كلمات بيلي واه الذي يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، أسطورة القوات الخاصة الأمريكية، صاحب الخبرة الطويلة في القوات شبه العسكرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، السفاح المشهور، قائد العمليات السرية، صاحب أطول خدمة في تعاقدات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية التي يطلق على الفرد فيها «الغريير الأخضر». وناقشنا في أثناء الفطور أحدث رحلة قمت بها إلى العراق بصحبة متعاقدين أمنيين، وشمل النقاش كذلك الوضع المربك والمهلك هناك. وقدم لي بيلي رأيه الصريح وغير الموارد المذكور آنفاً عن ما يجب فعله في العراق لوقف الخسائر البشرية في صفوف الجنود الأمريكيين. ولم تكن إشاراتِهِ إلى التكتيكات والحيل التي

استخدمت في ألمانية وغيرها من الحروب مستقاة من كتاب ما بل كانت نابعة من أحداث عاصرها في حياته.

وأفضل مؤشر على عمر بيلى يأتي من التاريخ الطويل والمناطق الواسعة التي يتحدث عنها بضمير المتكلم، فقد حاول بيلى واه أن يسجل اسمه للالتحاق بالمقاتلين في نهاية الحرب العالمية الثانية ولكنه أعيد إلى بلده باستروب في ولاية تكساس؛ لأنه كان في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الوقت، واستطاع أخيراً أن يلتحق بالقوات شبه العسكرية عام 1947 حين بلغ السابعة عشرة؛ ثم انضم إلى القوات الخاصة عام 1954 التي لم يكن مضى على تأسيسها سوى عامين؛ وعمل على نحو متقطع في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بدءاً من عام 1961، مستمتعاً بمهنته المديدة في القتل والجاسوسية. ويحمل واه أوسمة بوصفه من قدامى محاربي الحرب الكورية، وخدم أيضاً مدة سبعة وعشرين شهراً في العمليات العسكرية جنوب شرقي آسيا إبان الحرب الفيتنامية، وخدم 11 سنة في القوات الخاصة، وشارك في عدد لم يحدد بعد من عمليات السي آي إي (C.I.A) بصفة موظف في الوكالة وهؤلاء يطلق على الواحد منهم وصف (غريز أزرق) أو بصفة متعاقد (غريز أخضر). ويعرف خلقاً كثيراً، وزار أماكن كثيرة - فيتنام، والبوسنة والهرسك، والسودان، وكوسوفو، والعراق، واليمن، وليبية، وأفغانستان، وعشرات من الدول الأخرى. وفي أثناء عمله في وكالة الاستخبارات المركزية بصفة موظف أو متعاقد، عمل بيلى في ست وأربعين دولة منذ عام 1989.

ويفتخر بيلى بعمله مع الوكالة، ولم يكتف بتأليف كتاب عنوانه مطاردة ابن آوى<sup>1</sup>، بل يسافر من ولاية إلى أخرى لإلقاء دروس ومحاضرات أمام طلبة الدراسات العليا، وجمعيات القوات الخاصة، وحتى فرق كرة القدم الأمريكية. وقد قطعت سيارته الجديدة من طراز لينكن تاون التي اشتراها قبل ثلاثة أشهر أكثر من 35 ألف كيلومتر، جاء أكثرها من التنقل بين ولاية فلوريدا والعاصمة واشنطن. يقول بلي معترفاً بأنه «لم يعد يقدر على السفر بالطائرة». وليس ذلك لأنه يخشى حوادث الطيران؛ بل لأنه

1- ابن آوى في الأصل دويبة من فصيلة الكلاب أصغر حجماً من الذئب، ولا يفصل آوى من ابن، وجمعه بنات آوى للذكر والأنثى ويجوز جمعه على بنو آوى، وبالإنجليزية (jackal) ويطلق هذا الوصف على أي شخص يتولى القيام بأعمال حقيرة لمصلحة شخص آخر أو يساعده على تنفيذها.

يحمل معه الكثير من السلاح. واعتاد تذكير جمهور المستمعين لخطبه التحفيزية بالقول: «إن جوهر القضية هو كيف ترتقي بسرعة وتبقى مستمراً في الارتقاء. كيف تكون ذا بأس شديد». ومن العجيب أن يبلي لا يزال على قيد الحياة بالنظر إلى عمره والتجارب التي مرَّ بها. وفي لوحة ترخيص سيارته الأمامية المصممة بحسب طلبه بعض مفاتيح هذا اللغز. فعلى حين كُتِب على اللوحة الخلفية عبارة: «جريح حرب من قدامى المحاربين»، توضح اللوحة الأمامية الجملة بعبارة مبسطة: «8 إصابات»، وإلى جانبها رسم لوسام القلب البنفسجي<sup>1</sup>.

وأظن أن النادلة التي كانت تقوم بخدمتنا في مطعم الوافل هاوس حسبت هذا الرجل القصير المكتنز ذا الشعر الخفيف والنظارات الثخينة جداً مجرد جدّ ناهض المهمة. وليس في معطفه الأسود من نوع «للأعضاء فقط»، وقميص الغولف، وبنطاله العادي ما يثير أي فضول لديها، إلا إذا لاحظت شعار الجمجمة المتجهم، وهي شعار القوات الأمريكية الخاصة على معطفه. ويمكن القول: إن ثقافة يبلي وسلوكه متأصلة في القوات الخاصة الأمريكية. فهو يلبس خاتمين كبيرين من الجيش، وقلادة تحمل شعار القوات الخاصة في عقد ذهبي، إضافة إلى ساعة ذهبية من طراز رولكس ديماستر مرصعة بالماس - وهذه الحلبي ليست من قبيل الزينة بقدر ما هي علامات مميزة وشعارات شائعة لدى المنتسبين السابقين للقوات الخاصة. كما أن يبلي واه من مواطني ولاية تكساس، وهو مشهور بصراحته، ولا يطيق الحمقى. وعلى الرغم من تقدم عمره وعرجته - بسبب جروح أصابته في معارك قديمة - فإنه برشاقة جسمانية وعقلية كالتي يتمتع بها شاب في الحادية والعشرين من العمر. ويأتي حديثه مندفعاً متقطعاً كرشقات البندقية الآلية، مبتدئاً حديثه بوابل من الأسئلة، ومنهياً كلامه بعدد قليل من آرائه الشخصية.

التقيت يبلي أول مرة عبر الهاتف، وبدأ من فوره بطرح وابل من الأسئلة في أثناء حديثه. وجاءت تلك الأسئلة كالقصف الأولي لمدفعية الهاون، الهدف منها إرباك الطرف المقابل، أو تحديد موقعه بدقة. وحتى في المقابلة الشخصية، ينزع يبلي إلى تحديد موقف

1- واحد من النياشين التي يمنحها الجيش الأمريكي للأشخاص الذي يقومون بأعمال جسورة في أثناء الخدمة، ولا سيما الذين يصابون في أثناء العمليات القتالية.

الطرف المقابل له على المنضدة، هل هو: عدو أم صديق. فإن جاءت الأسماء والإجابات على وفق تفكيره، أصبحت صديقه، وأما إن كانت غير ذلك، فعندها يتوقف الحديث، وتنتهي المقابلة عند ذلك الحد. والتنبيه الوحيد الذي يوجهه إلى محبي الاستطلاع هو، «لا تتوقع مني أن أكشف لك عن أي معلومات سرية، أو أن أسيء إلى سمعة الوكالة».

ويتحدث بيلى عن القتل بالطريقة نفسها التي يتحدث بها الناس عن لعبة الغولف. فالقتل هو عمله، ومهنته، والشيء الذي يعرف ويتقن، وهو شيء دربته عليه الحكومة الأمريكية، وقدمت له المال للقيام به منذ زمن بعيد. وليس الهدف من الأوصاف التي يقدمها بيلى عن القتل والموت إثارة إعجاب السامعين؛ بل لإثبات الفرق بين الأختيار والأشرار من الناس في ذهن السامع. ويجب أن يُعذر بيلى على فجأته هذه. وهو يسعى دائماً إلى مخالطة الجنود الذين يفقهون ذلك. وهو في نظر مجتمع القوات الخاصة بطل أسطوري حي، كما أن الطريقة التي يتحدث بها عن نفسه مستخدماً ضمير الغائب، ومتلفظاً بمقاطع مشددة حين يلفظ اسمه -«بيلى وا»- تضي عليه هالة من التفرّد والشهرة.

ويصف بيلى وا نفسه في كتاب مطاردة ابن آوى، الذي ضمنه سيرة حياته، بأنه شخص لا يحسن العيش إلا في جو المعركة، شخص لا يمضي كثيراً من الوقت في القلق، والشكوى، أو تأمل ما يفعل. وقد أقدم بيلى على قتل عدد كبير من الناس، وواجه عدداً آخر حاولوا قتله، وكان من الموت المحقق قاب قوسين أو أدنى أكثر من مرة، وخسر كثيراً من أصدقائه. كما أنه اعتاد رائحة الموت، سواء عن طريق استرجاعه جثث رفاقه البالية الذين قضوا في ساحة المعركة، أو عن طريق تحمله عبء دفن عشرات من أصدقائه المقربين. وعلى الرغم من هذا كله، وحتى في عمره المتقدم، فإنه على استعداد تام لأن يذهب إلى أي مكان في العالم وتحت أي ظرف من الظروف لقتل أعداء أمريكا، أو لمساعدة الآخرين في قتلهم، خدمة لبلده. غير أن عهده في قتل أعداء أمريكا وتربصه بهم قد ولى. وحتى في حرب أمريكا الجديدة على الإرهاب التي رفعت شعار «حياً أو ميتاً»، فإن بيلى يرى تغييراً في الطريقة التي يسمح فيها للشركات الأمنية الخاصة والقوات شبه العسكرية أداء عملها.

ويذكر لي ببلي كيف تغيرت تكتيكات القوات الخاصة منذ بداية حياته المهنية. وذكر أن «فكرة تطوير الجيش الفيتنامي الشمالي والالتحام معه في قتال وجهاً لوجه لم تكن تكتيكاً ذكياً، ولكنه كان التكتيك الوحيد الذي كنا نعرفه في الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي. أما التكتيك الجديد فيقوم على استخدام القوات الخاصة برفقة بعض الوكالات الحكومية الأخرى، وعلى عدم السماح لحلفائنا من العملاء المحليين بالالتحام مع العدو. وهذا التكتيك الجديد هو أن نخوض حرباً من النوع الذي يجري فيها القتال (من بعد) في أكثر الحالات. وعادة ما تكون المسافة الفاصلة المفضلة للاشتباك مع العدو ما بين أربعة إلى خمسة كيلومترات». والهدف من وراء الطريقة التي تتبعها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والقوات الخاصة هذه الأيام من تدريب الجيوش التي تقاتل بالإنابة عن الولايات المتحدة هو إيجاد علاقة تكون فيها الولايات المتحدة بمنأى عن أطراف النزاع. ويوضح ببلي أن الترخيص بالقتل عهد به إلى أطراف أخرى تجنباً لتحمل أي مسؤولية مباشرة عن أفعالهم. «إننا لا نضغط على الزناد ولكننا يقيناً نقدم لهم البندقية، والرصاص، ونريهم الهدف، ونعلمهم كيف يضغطون على الزناد، وهذا ما لم يكن بهذه الطريقة في السابق». ونظراً لخبرته المهنية الطويلة في العمليات السرية، فإنه لا أحد أدري بالطريقة التي كانت تجري فيها العمليات مثل ببلي.

كان هدف القوات الخاصة منذ تأسيسها عام 1952، هو العمل من داخل العمق الجغرافي للعدو وراء خطوط المواجهة، وتدريب قوات المقاومة، والعمل على أنها قوة مضاعفة. وكان يتم انتقاء عناصر القوات الخاصة من بين أفضل وحدات المظليين، وأكثرهم ضراوة، من ذوي التفكير المستقل، والذكاء الحاد، والأخلاق الرفيعة إنهم رجال يمكنهم تنفيذ الأوامر التي توجه إليهم ولكنهم يملكون القدرة على التفكير في أنفسهم في الظروف الحالكة في بيئة معادية. وكان أوائل المنتسبين إلى القوات الخاصة كلهم يتمتعون بمهارات لغوية أجنبية، وكانوا على الأقل برتبة رقيب، ولديهم استعداد للعمل داخل عمق العدو بلباس مدني. ونظراً للطبيعة السرية للقوات الخاصة وارتباطها بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، فإن أكثر الناس كانوا يجهلون وجودها حتى

بداية الستينيات من القرن الماضي، حين أصبح الرئيس كينيدي داعماً متحمساً لها وأوعز بتوسيع دورها توسيعاً كبيراً في النزاع الفيتنامي الذي بدأ يشهد تصاعداً في حدته. وكان الدور الأولي لهذه القوات دوراً استشارياً ثم تحوّل إلى قوات عاملة في مسرح المعركة. وأبقى على علاقة هذه القوات بوكالة الاستخبارات المركزية في الخفاء.

ولدى وكالة الاستخبارات المركزية فرق شبه عسكرية خاصة بها، بعضها يعمل ضمن علاقة تعاقدية، وبعضها الآخر منتدب من الجيش. وسألت بيلى عن الفرق بين الاثنين. فرد علي بفرك إبهامه وسبّابته. «المال، وكالة الاستخبارات المركزية لديها المال، الكثير من المال. وكنا نحن [القوات الخاصة] نؤدي الجهد البدني».

لم يكن مفهوم القوات الخاصة بالمفهوم الجديد، غير أن أمريكا كانت تواجه نمطاً غير معهود من الحرب في منطقة جنوب شرق آسيا - مقاومة شيوعية لم يكن لديها جيش نظامي كبير في ساحة المعركة؛ بل كانت ترسل عملاءها بملابس مدنية لتجنيد، وتدريب، وتزويد رجال المقاومة بالسلاح. وما فعلته وكالة الاستخبارات المركزية والقوات الخاصة في جنوب شرق آسيا كان على وفق النموذج الذي اتبعه مكتب الخدمات الإستراتيجية 1 في فرنسا المحتلة مع الجذبورا الذين كانوا مكلفين بمهمة سرية تتطلب التوغل في مناطق العدو لتنسيق عمليات جهود الإمداد وتوفير الاتصالات. وقد شهدت جهود تدريبات وعمليات القوات الخاصة توسعاً نوعياً كبيراً، من التكتيكات البسيطة التي كان يتولاها الجذبورا في الحرب العالمية الثانية.

انضم بيلى إلى القوات الخاصة في منتصف الخمسينيات، وبدأ العمل في مهمات سرية لحساب وكالة الاستخبارات المركزية مع بداية عام 1961. وفي ذلك الوقت، لم يكن بيلى يعد نفسه شخصاً يقوم بعمليات سرية، مع أنه كُلف عام 1965 بتشكيل فريق مهمات خاصة، وإنشاء قاعدة عمليات تنطلق من القسم الشمالي الشرقي من مقاطعة بنه دنه في فيتنام الجنوبية. وكانت مهمة بيلى هي تجنيد وتدريب جيش من المرتزقة

1- مكتب الخدمات الإستراتيجية واختصاراً بالإنجليزية (OSS) وهو سلف وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. أنشئ عام 1942 واستمر عمله حتى عام 1945، وكان الهدف منه هو جمع المعلومات عن الدول المعادية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وإفساد جهودها العسكرية لإيقاع الهزيمة بها.

-مجموعة دفاع مدنية غير نظامية، أو ما يعرف اختصاراً CIDG- بهدف إعاقة حركة جيش فيتنام الشمالية في عمق مناطق العدو. وقد جرى تمويل هذه العملية تحت بنود قسم الدراسات المشتركة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، فيما تولت القوات الخاصة تنفيذ هذه العملية.

قام بيلي وفريقه ببناء معقل بدائي بمحاذاة نهر أن لاو، ومهبط للطائرات مستخدماً قوة عاملة مؤلفة من مئة من المرتزقة الذين جرى جلبهم من المناطق المنخفضة. وبعد الفراغ من الإنشاء، تحولت مهمة الفريق إلى تنسيق الجهود لمضايقة العدو في منطقة دائرية بقطر عشرين كيلومتراً حول قاعدتهم. وكان الجيش الفيتنامي يعلم بوجود تلك القاعدة ولكنه لم يحاول اقتحامها. وعلى خلاف ما كان يفعله الجذبورا في الحرب العالمية الثانية، الذين كانوا يعملون من داخل المدن الفرنسية المحتلة، أو من المزارع الواقعة على أطراف مدنها، فإن الأمريكيين كانوا ينفذون عملياتهم السرية انطلاقاً من قواعد ثابتة.

وفي الثامن عشر من يونيو عام 1965، انطلق فريق صغير مكون من ثلاثة عناصر من القوات الخاصة، ومعهم ثمانية وستون من مرتزقة فيتنام الجنوبية من معقلهم البدائي ليتسلقوا مهراً طوله سبعة عشر كيلومتراً بمحاذاة نهر أن لاو، ويستطلعوا مناطق العدو المحيطة بمعسكر تابع لجيش فيتنام الشمالية. وقامت المجموعة بالتخطيط لتنفيذ هجوم وحشي مختلس في الظلام كي تتيقن العصابات الفيتنامية الشيوعية أن المنطقة لا تصلح أن تكون قاعدة آمنة لمعسكرهم؛ لأنها محفوفة بالمخاطر. وقام بيلي ومجموعته بقتل ما يربو على مئة وستين من الجنود النائمين قبل انطلاق زفير أبواق النجدة التي تستنفض الأربعة آلاف جندي من الجيش الفيتنامي الشمالي الذين هبطوا إلى المعسكر في اليوم الفائت.

ولقي أكثر المرتزقة الفيتناميين حتفهم حين فروا في حقول الأرز السبخة. وأصيب بيلي في أثناء فراره برصاصة هشمت عظم ركبته اليمنى وأخرى أصابت قدمه اليمنى. واخترقت رصاصة ثالثة رسغه الأيسر متلفة ساعته اليدوية. وسقط بيلي على الأرض، متسربلاً بدمه، وبرزت عظامه البيضاء من بين ثيابه الممزقة، ومكث ينتظر الموت طريحاً على الأرض. وقد كان من المفروض أن تلك هي نهاية بيلي واه. ويتذكر بيلي أنه كان يحسب

بعد الضوء الأخضر الذي يشع خلف الرصاص، لمعرفة المسافة التي تفصل بينه وبين جنود الجيش الفيتنامي الشمالي، وكان باستطاعته شم رائحة الكاز المنبعث من قنابل النابالم، التي كانت تلقيها قوات الإسناد الجوي الأمريكية، ويشعر بالحرارة المنبعثة منها، حتى جاءت رصاصة لامست رأسه فأغمي عليه في الحال.

استيقظ بيلى واه ضابط الصف ذو الخمسة والثلاثين عاماً بعد عدة ساعات ليجد نفسه عارياً من الملابس بيد العدو. وكانت الشمس تسع جسمه المكشوف، وجفت الدماء بفعل حرارة الشمس لتصنع من دمه النازف أغلفة جامدة تلتصق بجسمه، بينما كانت آلام جروحه تنفجر في رأسه. واستمر القتال من حوله. ثم وصلت طائرة مروحية تحت وابل من النيران لإنقاذ بيلى ونقله إلى المعسكر الأمريكي، غير أن الجندي الذي جاء ليحمله إلى الطائرة أصيب مرتين بالرصاص في قلبه ورتته. وزحف بيلى بضعة أمتار وساعده الطاقم في الصعود إلى الطائرة. وفي حين كان بيلى مستلقياً في طائرة النقل العمودية، شاهد رصاص الجيش الفيتنامي يصيب ذراع مدفعية الطائرة وكاد أن يسقطها. وصل بيلى إلى المستشفى أخيراً ووجد نفسه وسط أكوام من الجنود القتلى. وحين هدأ وطيئس المعركة، كان العدو قد خسر ست مئة جندي، ولم ينج من المرتزقة الثمانية والستين الذين كانوا تحت قيادة بيلى سوى خمسة عشر. كما قتل أمريكي آخر من فريقه الخاص، بينما نجا ثلاثة آخرون من بينهم بيلى.

عاش بيلى عدة شهور في عالم مخدر ضبابي بين الوعي والغيوبة من فعل عقاقير مسكنات الآلام، واحتاجت جروحه إلى أكثر من عام لكي تبدأ بالالتئام. وفي نهاية هذا النفق المعتم، سمع بيلى هاتفاً يردد نداءه الأسمى: بيلى يريد أن يعود إلى العمل، لكن ليس إلى ما سماه القوات الخاصة «التقليدية»؛ بل إلى «الجانب الأسود» من القوات الخاصة التي كانت تعمل مباشرة مع وكالة الاستخبارات المركزية. فقد سبق له أن شاهد الموت بأم عينه لذلك لم يعد يخشى الموت. وكانت جروحه تعني أنه لن يتمكن من العمل على الوجه الطبيعي، لكن بيلى لم يكن ليسمح لتلك الجروح أن تحطم حلم حياته في أن يكون جندياً. ولعل أكثر الجنود يستسلمون إلى القول إنهم استنفدوا حظهم في هذا المضمار، لكن بيلى أراد العودة، مظهراً عزيمةً عنيدةً وشكيمةً أبيةً أصبحت فيما بعد علامة مميزة في سجله

المهني القتالي، وأفزعت آخرين في كل مرة يطلب فيها يبلي متطوعين للعمل في مهماته. لذلك لم يكن مستغرباً أن يفخر يبلي بعدها بميوله نحو العمل وحده.

ومع أنه لا يكاد يحسن المشي مما به من جروح، إلا أنه استطاع إقناع المسؤولين الكبار في وكالة الاستخبارات المركزية بتكليفه بالإشراف على مجموعة تدعمها الوكالة ويطلق عليها اسم مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبة الخاصة في فيتنام المعروفة اختصاراً بالإنجليزية (MACV-SOG)، وكانت تلك المهمة هي نقطة تحول يبلي من الجانب العلني «الأبيض» من العمليات العسكرية إلى الجانب «الأسود» السري من العمليات الحربية -وهي عمليات في غاية السرية وقابلة للإنكار من قبل الحكومة الأمريكية- ويجري تنفيذها في الخفاء بمنتهى السرية، وتحجب عن الشعب الأمريكي والكونغرس. وكان لخبرته في عمليات القوات الخاصة وتلفه إلى العودة إلى ساحة المعركة أثر في أصدقائه الذين تقبلوه ووضعوه على متن طائرة وعهدوا إليه بمهام المراقبة، والتحكم، والإنقاذ. وحين توقف سيلان القيح من جروحه وبدأت تتماثل للشفاء، أذن له بالنزول إلى الميدان.

شكّلت مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبة الخاصة في فيتنام عام 1964 بوصفها مجموعة عمليات حربية مشتركة سرّية، غير تقليدية، للعمل في فيتنام، ولاوس، وكمبوديا. ومع أنها كانت في البداية مشروعاً عسكرياً، إلا أن هذا البرنامج العسكري الاستخباراتي المشترك دمج بين شطري العمليات التي كانت من اختصاص مكتب العمليات الخاصة في عهد الحرب العالمية الثانية. وقد جمعت مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبة الخاصة في فيتنام جهود كل من وكالة الاستخبارات المركزية، والقوات الخاصة، والمرتزة، والجماعات المناهضة للمقاومة، والمتعهدين المستقلين، وشركات الواجهة<sup>1</sup>، والشركات الشرعية في الحرب على فيتنام الشمالية. وقد استفادت هذه العملية المشتركة من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية ومن الجيش النظامي الذين قاموا بتمويل وتوجيه نشاط القوات شبه العسكرية المحلية. وقدّم استخدام المرتزة عنصراً لنفي المسؤولية غير متوافر لأفراد الجيش النظامي الأمريكي، ولا سيما في الدول التي ليست طرفاً في النزاع، مثل كمبوديا ولاوس. واستمر عمل تلك

1- وهي شركات تجارية -وأحياناً منظمات خيرية غير حكومية- في الظاهر يتخذها جهاز الاستخبارات في دولة ما لممارسة نشاطاته الاستخباراتية تحت واجهتها في دولة ثانية دون علم تلك الدولة.

المجموعة حتى الثلاثين من إبريل من عام 1972، وأنهت الوكالة التي خلفتها والمسماة فريق مساعدة إدارة التقنية الإستراتيجية 158، أنهت جميع النشاطات السرية شبه العسكرية الأمريكية في فيتنام بتاريخ 12 مارس من عام 1973. وفي النهاية، كانت مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبة الخاصة في فيتنام زهاء ألفي عنصر من الأمريكيين وما يربو على ثمانية آلاف من العناصر المحلية.

كانت غالبية المتقاعدين المستقلين، الذين تعاقدوا مع وكالة الاستخبارات المركزية ضمن تلك المجموعة مؤلفة من المتقاعدين العسكريين الذين جرى استجلابهم عن طريق شبكات المعارف والأصدقاء، رجالاً ممن لديهم خبرة عسكرية؛ وممن يقدرّون أهمية المحافظة على سرية ما يقومون به من أعمال؛ وممن يقدرّون على إنجاز المهمات الضرورية لتوظيف وإدارة جيوش المرتزقة. وفي العادة يجري تجنيد المرتزقة من السكان المحليين، ويمكن توظيفهم بأموال وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وتقوم على تدريبهم فرق تابعة للقوات الخاصة تعمل مباشرة مع وكالة الاستخبارات المركزية. وفي أثناء الحرب السرية التي جرت في لاوس منذ عام 1961 وحتى عام 1975، عمل عدد يتراوح ما بين 40 إلى 50 من موظفي وكالة الاستخبارات المركزية مع عدة مئات من المتقاعدين «المدنيين» (أكثرهم من المتقاعدين أو العاملين في الجيش) الذين وكلت إليهم مهمة قيادة طائرات الاستطلاع والرصد، وإدارة القواعد العسكرية، وتشغيل محطات الرادار، بملابس مدنية. وكانت الفكرة هي شنّ حرب باستخدام المتعهدين من القطاع الخاص، مع تقديم خدمات الإمدادات والنقل والموارد لهم عن طريق شركات تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وهي شركات تجارية تملكها وتمولها الوكالة. فكانت حرباً تشنها شبكة معقدة متشابكة مكونة من ضباط الاستخبارات، والقوات شبه العسكرية، والمتقاعدين المدنيين، إضافة إلى الجيش، وقد نسجت خيوط هذه الشبكة بحيث تكون قابلة للإنكار مع غياب مدروس ومحسوب لأي مسؤولية، أو عرضة للمحاسبة أمام الكونغرس، أو دافع الضرائب الأمريكي. وقد كانت العمليات السرية -وما زالت- تشكّل أعمالاً قادرة تنفذ في أماكن بعيدة بما يخدم أهداف وغايات المصالح الأمريكية.

كان أكثر التركيز الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية منصباً على التصدي لأي توسع للشيوعية بعد الحرب العالمية، ولكنها مع ذلك أخفقت في إيقاف الموجة الشيوعية

في فينتام. كما بدأت الوكالة تتعرض للهجوم والنقد على الجبهة الداخلية في الولايات المتحدة، بدءاً من المقالة التي نشرها سيمور هيرش في 22 ديسمبر / كانون الأول، 1975، التي اتهم فيها الوكالة بالتجسس على المواطنين الأمريكيين داخل الولايات المتحدة. وقد أنشأ الرئيس فورد لجنة روكفلر للتحقيق في ادعاءات التجسس على الحركات المناهضة للحرب وحركات الحقوق المدنية، كما أنشأ الكونغرس لجنة تشيرتش المنبثقة عن مجلس الشيوخ، ولجنة بايك المنبثقة عن مجلس النواب وذلك للبحث والتقصي في قضية تعسف وكالة الاستخبارات المركزية.

ثم تبع ذلك هيجان ماحق استهدف أجهزة الاستخبارات في البلاد؛ إذ أفضت التحقيقات التي كانت تهدف إلى التقصي عن تجاوزات وكالة الاستخبارات المركزية إلى فضح الإخفاقات الكثيرة التي ارتكبتها الوكالة. كما كشفت التحقيقات عن أن وكالة الاستخبارات المركزية من بين عدد من الوكالات الفدرالية تعمدت إخفاء نفقات معينة، حتى إن مكتب المحاسبة الحكومية لم يكن لديه علم بمجموع النفقات التي صرفت على العمليات السرية. وانتقد النائب بايك بمنطق سليم قدرة أجهزة الاستخبارات على تقدير النزاع وألقى ظلماً من الشك على النجاح الذي حققته العمليات السرية على مدى عشر سنوات. وسردت لجنة تشيرتش بالتفصيل خطط وكالة الاستخبارات المركزية لاغتيال زعماء كوبا، والكونغو، وفينتام الجنوبية، وإندونيسية، وهاييتي، وجمهورية الدومينيكان. وأوضح التقرير أن لا أحد من المواطنين الأمريكيين أطلق النار، غير أن الوكالة قدمت السلاح، والدعم، والتدريب وفي نيتها تحقيق تلك الأهداف.

وقد وجهت تحقيقات تشيرتش وبايك ضربة قاصمة لقدرة وكالة الاستخبارات المركزية على العمل بقوة واستقلالية. وجرى على وجه التحديد حظر القيام بالاعتقالات بموجب أوامر رئاسية، وكبح جماح استخدام الحيل القذرة، والمرزقة، والمتعاقدين المستقلين، والعملاء بالإنابة. وفجأة، أصبح يُنظر إلى الأشخاص من شاكلة بيلى واه بوصفهم أشخاصاً يعيشون في غير زمانهم، ويشكلون عناصرً مثيرةً للقلق والأخطار. وجرى في ذلك العام فصل ما يربو على ثماني مئة عنصر ممن يعملون في العمليات السرية، وكاد قسم النشاطات الخاصة أن يتلاشى من الوجود. ولو كان بيلى يعمل بموجب عقد مع

وكالة الاستخبارات المركزية في ذلك الوقت، لأعفي حتماً من عمله، أو لأسندت إليه مهمة أخرى في ضوء نتائج تحقيقات لجنتي تشيرتش وبايك، وما أعقبها من إطفاء لشرارة وكالة الاستخبارات المركزية.

وفي ظل الاختفاء المؤكد للفرص من أمامه، شعر بيلى بعناية السماء تبتسم له حين جاءته مكالمة هاتفية، طلب المتحدث فيها أن يقابله في فندق معين في شمال ولاية فيرجينيا في 25 يوليو/ تموز عام 1977، وطلب منه أن يجهز نفسه للسفر في مهمة تستغرق عاماً كاملاً في الصحراء، وهذه مقدمة معهودة للدلالة على المهمات السرية، ويصاحبه في هذه المهمة ثلاثة أفراد من قدامى العاملين في القوات الخاصة، وكانت الدولة المقصودة هي ليبيا. وكانت مهمة هذا الفريق هي تدريب مجموعة من القوات الخاصة تعمل مباشرة تحت إمرة العقيد معمر القذافي. وكانت ملامح هذه المهمة تحمل كل سمات وخصائص ووظائف عملية سوداء في غاية السرية ومسبوكة في قالب محكم من القابلية للنفي والإنكار الرسمي التام. ولم توجه إلى بيلى أي أسئلة خطيرة؛ ولم يخضع أي من أعضاء الفريق لتدقيق رسمي حول خلفيتهم. وكان المسؤول عن الفريق شخصاً يدعى إد ويلسون، وهو موظف سابق في وكالة الاستخبارات المركزية. ولم يكن على غير العادة أن يتولى موظف سابق، أو جندي سابق، عملاً بصفة متعاقد مستقل حرّ تحت غطاء غير رسمي.

وفي اليوم الذي سبق ميعاد سفر بيلى وفريقه إلى ليبيا، تلقى اتصالاً آخر، وهذه المرة من شخص عمل في السابق في القوات الخاصة، تحت إشراف مباشر من وكالة الاستخبارات المركزية، وقدم له هذا الشخص ما يثبت صفته الرسمية، ولكنه لم يفصح عن اسمه. وكان بيلى متيقناً من أن هذا الاتصال صحيح، وليس مشبوهاً. وقد أخبر هذا الشخص الغامض بيلى أن مهمة ويلسون ليست مشروعاً رسمياً من مشروعات الوكالة، غير أنه أقدم على خطوة غير عادية بأن قدّم لبيلى آلة تصوير من نوع بينتاكس، وأخبره بأنه إذا التقط صورة لأي شيء مثير للفضول، فسوف يكون له مكافأة مالية. وقدم له هذا الشخص شيفرة سرية للاتصال به. ونظراً لحاجته إلى المال، لزم بيلى الصمت وقبل العرض.

أمضى بيلى سنة كاملة في تدريب القوات الليبية بموجب عقد ويلسون، وقام بتصوير عدد من المواقع لحساب وكالة الاستخبارات المركزية. وفي نوفمبر من عام 1979، بدأت

أزمة الرهائن الأمريكيين في طهران، وبدأت مظاهر العداء تجاه الأمريكيين تنتشر في الشارع العربي، وأحرقت السفارة الأمريكية في طرابلس الغرب، ونهبت موجوداتها. أمهل بيبي ساعتين لمغادرة ليبيا، وتمكن من مغادرة البلاد على متن رحلة متوجهة إلى فرانكفورت بملابسه التي كان يلبسها وبضعة عشر فيلماً غير محمض.

أما إد ويلسون، فقد قبض عليه، وحوكم بتهمة نقل أسلحة إلى ليبيا. وادعى بأنه كان يعمل بدعم من وكالة الاستخبارات المركزية، وهو ادعاء نفته الوكالة في شهادة خطية تحت القسم تليت في جلسة محاكمته، وجاء في الشهادة أن الوكالة لم تجر أي اتصال مع ويلسون منذ السبعينيات. وحكم على ويلسون بالسجن 53 عاماً، إلا أنه أفرج عنه أواخر عام 2003، حين حكم قاض فدرالي بأن وكالة الاستخبارات المركزية تعمدت الكذب في شهادتها حين لم تذكر أنها اتصلت بويلسون ثمانين مرة في تلك المدة؛ بل والأنكى من ذلك، أن ويلسون تمكن من توثيق أربعين مهمة كلفته بها وكالة الاستخبارات المركزية بعد تقاعده من الوكالة. إن الخط الفاصل بين العمليات السرية والعمليات الإجرامية هو خط باهت في الغالب.

بعد ليبيا، انجرف بيبي نحو نمط مختلف من الحياة أكثر من عقد من الزمان، منفقاً وقته في أعمال لا تروق له وفي معاقررة الخمر، فكانت الثمانينيات سنوات ضائعة من حياته. وفي الوقت الذي دخل فيه بيبي منتصف عمره وقد أرهقته الجراح وأثقلته مهنة قضى فيها عشرين عاماً دخل في معركة متواصلة. حياة زاخرة بالمجهود الشديد والأخطار الجسام إلى حد أوصله إلى حالة من الملل الذي يبيلد العقل. وقال لي، «لقد كنت أشرب الخمر كثيراً ولكنهم لم يعبأوا بذلك. وقالت لي: وكالة الاستخبارات المركزية: «إذا توقفت عن الشرب، فسنعيدك إلى العمل في». فقلت لهم: «حسناً، لست متيقناً من أنني قضيت وطري من الشرب حتى الآن. أظن أنني سأشرب المزيد». وحين توقفت عن الشرب، قالوا لي: «تعال، تعال، تعال».

وفي عام 1989، تلقى بيبي مكالمة من صديق سابق من القوات الخاصة يدعوه فيها إلى واشنطن. وكما يوضح بيبي أن «الوظيفة هي أن تكون جزءاً من قوة ضاربة مصممة للقضاء على أفراد يشكلون خطراً على الولايات المتحدة». لم يصدق بيبي حسن حظه. وظن هذه المرة أنه سيكلف بوظيفة متعاقد مستقل لتنفيذ تفويض رسمي بالقتل، وهو أمر

مفترض في زمن الحرب، لكن قلماً يُلجأ إليه في غير الأوقات التي تدور فيها رحى المعركة. وقد سبق أن عمل بييلي تحت وصف «غريير أزرق» - أي موظفاً في وكالة الاستخبارات المركزية - غير أن تلك الوظيفة لم ترق له، ولم تعجبه العاصمة واشنطن، فقد كان يحب العمل في الخارج، بحسب تقديره وبعيداً عن بيروقراطية لانغلي<sup>1</sup>. فقد كان بييلي ذنباً وحيداً يفضل العمل بمفرده، وهي صفة أحببها الوكالة أيضاً.

اكتشف بييلي بعد تحمّسه الأولي، أن وكالة الاستخبارات المركزية لعام 1989، تختلف عما عهده بها في أيامه السابقة؛ إذ تقلّص الدور الذي تصوّره من كونه شخصاً مكلفاً بالقتل، إلى مجرد شخص يقوم بالمراقبة والترصد، وهو دور يشابه قيام الصياد بمراقبة فريسته عبر منظار البندقية، ولكنه ممنوع من الضغط على الزناد. وكان عليه أن يحمل معه آلة تصوير بدلاً من بندقيته المزودة بمنظار مقرب، وقلماً بدلاً من رصاص البندقية. وكلفت وكالة الاستخبارات المركزية بييلي بالبحث عن أعداء أمريكية ومراقبتهم، ورصد تحركاتهم، حتى يأتي الوقت الذي يصدر فيه قرار بتحديد مصيرهم.

كان بييلي يعلم أن الضجة الإعلامية التي صاحبت تحقيقات لجنة تشيرتش قد أرغمت الرئيس جيرالد فورد على التوقيع عام 1967 على المرسوم الرئاسي رقم 11905 - وهو مرسوم جاء في اثنتين وعشرين كلمة ويقضي بحظر الاغتيال بوصفه أداة من أدوات السياسة الخارجية الأمريكية. وقد أقر الرؤساء الذين أعقبوا فورد هذا المبدأ. ويشمل منطوق المرسوم المتعهدين والمرتزة: «لا يسمح لأي شخص موظف لدى الحكومة الأمريكية، أو يعمل نيابة عنها، أن ينخرط في عمل الاغتيالات، أو أن يكون طرفاً في مؤامرة لتنفيذ الاغتيال». وفي الدور الجديد الذي أسند إلى بييلي واه بصفته متعاقداً مستقلاً مع وكالة الاستخبارات المركزية في إفريقية، فإن بإمكانه استخدام مهاراته كافة التي أتقنها في مراقبة وتعقب الأشخاص المعينين باستثناء مهاراته القتالة. وجد بييلي نفسه في سنته الأولى من عودته إلى العمليات السرية متمركزاً في مرتع الإرهاب الإسلامي، أي: في العاصمة السودانية الخرطوم.

1- المقصود هنا قاعدة لانغلي الجوية في مدينة هامبتون الواقعة جنوب شرقي ولاية فيرجينيا، وتضم هذه القاعدة المركز الرئيس لقيادة عمليات سلاح الجو الأمريكي، ومركزاً للأبحاث الفضاء التابع لوكالة ناسا، إضافة إلى المركز الرئيس للقيادة والتدريب على المذهب العسكري الأمريكي. وهي قريبة نسبياً من العاصمة واشنطن، وتبعد عنها قرابة 130 ميلاً.

استمتع بيلي بإقامته في السودان. فهو يحب الدول العربية عموماً -وقد ساعد في ذلك معرفته بأساسيات اللغة العربية وارتياحه إلى ثقافة البلاد- وكان هناك الكثير من العمل في الخرطوم، أو «مدينة كي»<sup>1</sup>، كما تسميها الوكالة. وسرعان ما اكتشف بيلي أن عليه تعقب كثير من الأشخاص، وأخذ كثيراً من الصور، وكتب كثيراً من الملاحظات، ورسم كثيراً من الخرائط، وكتب كثيراً من التقارير.

كان بيلي ينطلق من عمله من السفارة الأمريكية تحت غطاء دبلوماسي، وهو ما وفر له حصانة من ملاحقة السلطات السودانية له. وما لم يتمكن السودانيون من القبض عليه متلبساً بفعل محظور، فإن بإمكانهم مضايقته، ولكنهم لا يستطيعون إلقاء القبض عليه أو قتله. وكان بيلي يعمل وحده، وغالباً ما ينجز عمله في أثناء جريه في الليل: «كنت أتأوب العمل مدة ستة أسابيع إلى تسعين يوماً بين فبراير/ شباط من عام 1991 ويوليو/ تموز 1992. ولو مكثت مدة أطول من شهر، فإن ذلك سيثير حفيظة الجهاز الأمني السوداني». وفي أثناء عمله في السودان، قرر رجل أعمال اسمه أسامة بن لادن أن ينقل مقره إلى السودان وأصبح واحداً من بين عدد كبير من الأشرار الذين يتحتم على بيلي مراقبتهم.

وكان يسيطر على السودان آنذاك حكومة إسلامية تتلقى دعماً سخياً من إيران. وكان الناشط الإسلامي المثقف حسن الترابي يتولى منصب نائب الرئيس وكان مسؤولاً عن السياسة الودّية التي تتبعها الدولة تجاه الجماعات الإسلامية المسلحة، والشخصيات الدينية المعارضة، والإرهابيين. وكان الترابي يحتمي وراء الرئيس عمر حسن البشير. وفي عام 1991، تجمع في السودان خليط غريب من الفارين من العدالة، والمجرمين، والمهاجرين، بمن فيهم شخصيات مشهورة مثل كارلوس المعروف بابن أوى، وأبي نضال، والشيخ الضرير عمر عبد الرحمن. وقامت خلايا تابعة للجماعات الإسلامية الرئيسية وممثلون عن أكثر الجماعات الإسلامية بفتح مكاتب لها في الخرطوم، بمن فيها حزب الله، والجهاد الإسلامي، وغيرها. وبعد انتقال ابن لادن إلى السودان عقب حرب الخليج الثانية [حرب تحرير الكويت]، شرع في إقامة المشروعات التجارية مثل مشروع تصدير السمسم، إضافة إلى مشروعات إنشائية مثل مشروع الطريق السريع بين الخرطوم

1- «K-Town»

وميناء السودان، وبدأ يجمع حوله نواة ما أصبح يعرف فيما بعد بمنظمة القاعدة. كما أقام معسكر تدريب في أم درمان على بعد خمسة عشر ميلاً من الخرطوم.

تمكن بييلي من رصد تحركات ابن لادن الاعتيادية وعاداته الشخصية. ويفكر بييلي في الفرق الذي كان سيحدث لو سمح له بقتل ابن لادن في السنوات التي أمضاها في السودان. ورفع بييلي أصابعه وكأنه يمسك برصاصة للتأكيد على هذه النقطة: «قبل الحادي عشر من أيلول / سبتمبر، كانت الغلبة للمحامين. لو أردت أن تتبؤل، كان عليك أن تستشير محامياً. كان الناس يرتعدون خوفاً؛ فلم يكن جورج تينيت حازماً في أي شيء، وكانت العقبة أمامه هي اللجنة النيابية المشرفة، وكان تينيت يرغب في فعل أشياء كثيرة لكنهم لم يسمحوا له بفعلها، ولو أردنا أن نقتل شخصاً ما، فإن علينا أن نحصل على موافقة الشيوخ والنواب».

كان بمقدورنا أن نقتل ابن لادن في عدد من الفرص لا يمكن إحصاؤها، وكنت أضع كل يوم خمس عشرة خطة مختلفة لقتله، وكانت فكرتنا تقوم على قتله ووضع جثته وراء جدار السفارة الإيرانية؛ كي نجعلهم في موقف سيئ، وعلى قدر ما كانوا عليه من تساهل في ضبط سفارتهم، فقد كان بإمكاننا أن نلقي به داخل جدار السفارة، وكنا سنلقيه هناك ثم نتصل بالسلطات السودانية لنقول لهم، «هيه، لقد وقع إطلاق نار في السفارة الإيرانية. أولى لكم أن تذهبوا إلى هناك وتلقوا نظرة على ما يحدث». لقد وضعت ذلك في إحدى الخطط؛ ولكنهم قالوا لي، «هل فقدت صوابك؟» غير أن شخصاً واحداً أحب هذه الفكرة من أول نظرة - وهذا الشخص هو كوفر بلاك. ولكن قيل له: إننا لن نفعل ذلك، ثم توقف بييلي برهة من الوقت، متحسراً على تلك الفرصة الضائعة. «كانت تكفي رصاصة واحدة ملعونة بكلفة عشرة سنتات».

كان هذا الحظر المطلق على الاغتيال وتنفيذ عمليات القتل دون محاكمة ساري المفعول حتى أواخر عام 1998، حين وقّع الرئيس بيل كلينتون - على إثر التفجيرات التي استهدفت السفارات الأمريكية شرق إفريقيا - على سلسلة من الأوامر والمذكرات الرئاسية تسمح لوكالة الاستخبارات المركزية وعملائها باستخدام القوة القاتلة للقبض على ابن لادن وتقديمه للعدالة. ولم تتضمن تلك المذكرات أي أوامر مباشرة بقتل ابن لادن، لكنها صيغت بطريقة تتم عن القبول بالمخاطرة بقتله إذا وقع هذا القتل في حادث

عرضي نتيجة لعملية خاطفة. وأصدر كلينتون أربع مذكرات لتشمل معاووني ابن لادن، غير أن صياغة تلك المذكرات كانت تؤكد على أن أي مهمة في هذا الصدد يجب أن تقوم على تقديم هؤلاء الأشخاص للمحاكمة، وليس إنهاء حياتهم. وكان الأمر المباشر بالقتل يستدعي صدور مرسوم صريح بالقتل، وهذا لم يحصل إلا بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر؛ إذ أدى وقوع تلك الهجمات إلى إزالة العقوبات القانونية أمام إصدار أوامر رئاسية تزيل الحظر الذي كان قائماً على استهداف الأشخاص بالاغتيال.

لم يخطر ببال بيلي أن يمثل ابن لادن خطراً أكثر أو أقل من الجماعات الأخرى، التي كانت موجودة في الخرطوم مع بداية تسعينيات القرن الماضي، ولم يتصور ألبتة أن أمنيته ستتحقق (...)، وجاء 11 أيلول/ سبتمبر، 2001 ليغير من وجهة النظر الأمريكية تجاه قبولها بقتل أعدائها.

«لقد كنت في مبنى وكالة الاستخبارات المركزية صبيحة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، في الطابق السادس للقيام بأخر تجهيزات سفري إلى تايلاند في مهمة تتعلق بالمخدرات. وصاح أحد الأشخاص الذين كانوا يراقبون شاشة التلفاز: «يا إلهي، انظروا إلى هذا الطيار الملعون... لقد صدم بطائرته البناية». ثم جاءت طائرة ثانية وارتطمت بالبرج الثاني فأطلقت صفارات الإنذار<sup>1</sup>. وكان هناك طائرتان أخريان مفقودتان. وجاءت

1- تتطابق هذه الشهادة، وهي رؤية الطائرة الأولى وهي ترتطم ببرج التجارة العالمي في نيويورك صبيحة 11 أيلول/ سبتمبر عبر شاشة التلفاز، مع الوصف الذي جاء على لسان الرئيس الأمريكي جورج بوش في اجتماع جماهيري في مدينة أورلاندو بولاية فلوريدا في الرابع من كانون الأول/ ديسمبر من عام 2001، وذلك في معرض رده عن سؤال وجهه إليه طفل اسمه جوردن وطلب فيه من الرئيس أن يصف مشاعره حين علم بالهجمات، وقال بوش: إن كان يقوم بزيارة مدرسة ابتدائية في فلوريدا لتشجيع القراءة، وإنه شاهدها عبر شاشة التلفاز قبل دخوله غرفة الصف في المدرسة التي كان يزورها، الطائرة الأولى وهي ترتطم بالبرج، فكان أول ما خطر في باله أن الطيار الذي كان يقود الطائرة لا بد أنه كان طياراً لا يحسن الطيران. ثم دخلت الصف... إلخ. والمشكلة التي تثيرها هاتان الشهاداتان هي أن وسائل الإعلام الأمريكية لم تبت مشهد ارتطام الطائرة الأولى بالبرج إلا في اليوم اللاحق أي في 12 أيلول/ سبتمبر بخلاف الطائرة الثانية التي ارتطمت بالبرج الآخر بعد وصول كاميرات وسائل الإعلام لتصوير الحادثة الأولى ونقلت كاميرات وسائل الإعلام ارتطامها بالبرج. وهذه الشهادة، وكذلك شهادة بوش المطابقة لها تثير عدداً من الأسئلة والشكوك لا مجال لتناولها الآن، لكنني أحببت الإشارة إليها.

الأوامر بإخلاء المبنى. ولم يسبق لي أن شاهدت الوكالة تتحرك بتلك السرعة، وليتك شاهدت حركة السير على الطريق السريع 123. لقد كان الناس يسيرون بسرعة 90 ميلاً في الساعة خارجين من مقاطعة كولومبيا، وكان موظفو وكالة الاستخبارات المركزية يحاولون الخروج مع الخارجين في الزحمة. لقد كان الناس هناك يكرهون الوكالة. ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن لديهم علم بالأغلال التي كانت تقيد أيدينا، لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية تقتل أحداً، ربما كانوا يشاهدون اختفاء بعض الناشطين من بني جلدتهم، لكن الحكومات الأخرى هي التي كانت تفعل ذلك، لقد كانوا يلقون بالمسؤولية عن كثير من حوادث القتل السرية على عاتق وكالة الاستخبارات المركزية، لكننا لم نكن نحن من يفعل ذلك».

في اليوم اللاحق، قام رئيس قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية باستدعاء بيلى وطلب منه أن يبدأ بتجنيد متعاقدين مستقلين، لغرسهم في أفغانستان للقيام بعمليات شبه عسكرية تستهدف ابن لادن وأتباعه. «لقد حصل كوفر بلاك على تلك الأوامر بعد اجتماع استغرق ليلة كاملة في كامب ديفيد. توجه إلى هناك بالطائرة، وحين رجع من كامب ديفيد يمكنك أن تلاحظ أن الأمور قد تغيرت تغيراً كاملاً. لقد أرادوا قتل أناس بعينهم، ولم يكونوا هذه المرة سيطلقون بعض الصواريخ على كومة من الرمال. بل أرادوا رؤية بعض الجثث على الأرض في الواقع المحسوس».

### «السيّء الخسيس الغشاش»

في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2001، شدّ بيلى واه رحاله برفقة فريق من المتعاقدين الأمنيين إلى طشقند في أوزبكستان، على متن طائرة نقل عسكرية عملاقة. وكان بيلى يدرك وقتها أنه يخوض آخر حرب، بل ربما آخر مهمة له في حياته المهنية. وبعمر ناهز واحداً وسبعين عاماً، يكون بيلى أكبر المتعاقدين الأمنيين سناً مع وكالة الاستخبارات المركزية ممن لديهم خبرة في ساحة المعركة. وكانت مهمة الفريق الذي رافقه هي البحث عن ابن لادن ومعاونيه وقتلهم. وكان لديهم توقعات مُتدنية بالنسبة للقبض عليهم أحياناً.

وقد قام الرئيس بوش بالتوقيع على مرسوم رئاسي سري يخوّل وكالة الاستخبارات المركزية قتل ابن لادن وأعوانه؛ وحرصاً على إزالة أي لبس حول هذا الأمر، طلب كوفر بلاك من غاري شروين، قائد أول فريق للوكالة في أفغانستان، أن يرسل إليه ابن لادن ميتاً في صندوق. ويتذكر بيلى تلك الأيام المحمومة في أيلول / سبتمبر: «لقد قال بوش للوكالة، «أريد جثثاً». فرد عليه كوفر بأنه سيجعل الذباب في عيونهم في غضون أسبوع من الزمان».

لقد أجبرت فداحة هجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر الحكومة الأمريكية على إحداث تغييرات جذرية في الأوامر التي كانت سارية المفعول منذ عهد كلينتون؛ لتسمح باستخدام القوة القاتلة في العمليات المصممة لإحضار ابن لادن أمام العدالة. وبحسب ما يذكر بيلى، فإن «بوش أعطانا رخصة للقتل. هل وقّع رخصة القتل تلك؟ كلا، لكننا تلقينا تلك الرخصة مشافهة، وكان على المحامين أن يملؤوا النماذج والوثائق اللازمة. ولا يمكن لأحد أن يرى تلك الوثيقة. حتى مع تمتعي شخصياً بأرفع درجات التصاريح الأمنية الرسمية من الدرجة الثالثة داخل الوكالة، فإنني لا أتوقع أن أطلع على تلك الوثيقة طوال حياتي».

لقد قطع جورج تينيت وكوفر بلاك على نفسيهما عهداً للرئيس بوش، بأنهما سيتعقبان بفاعلية جماعة ابن لادن، ويطيحان بحركة طالبان عن طريق إرسال فرق من قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، ومن أفضل الفرق التابعة للقوات الخاصة. لكن المشكلة هي أنه لم يكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية عدد كافٍ من الأفراد المدربين لتنفيذ ذلك الوعد؛ لذلك فقد لجأوا إلى رهطهم الذين أثبت الزمن حسن وفائهم للوكالة: وهم المتعاقدون الأمنيون وجيوش المرتزقة الذين ينفذون المهمات بالإنابة عنها. وقد استدعي ضابط عمليات الوكالة غاري شروين من برنامج تحضيري لتقاعدته، وأرسل إلى وادي بانجشير في أفغانستان؛ ليتولى تجنيد جيش من المرتزقة أطلق عليه اسم تحالف الشمال. وانتدب بيلى واه لمساعدة ضباط آخرين من الوكالة في تأليف مزيد من الفرق التي ستضم إلى شروين وميليشياته التي تتولى تعقب ابن لادن داخل أفغانستان.

وفي عام 2001، لم تكن هناك أي شركة أمريكية تتخصص حصراً بتزويد عاملين ذوي خبرة عسكرية، ولم يزدهر نشاط الشركات الأمنية الخاصة مثل شركة بلاك ووتر، و تريبيل كانوبي، وما شابهها من شركات إلا بعد الانتشار العسكري الذي أعقب هجمات 11 أيلول / سبتمبر - وفي العراق على وجه الخصوص - والذي أوجد سوقاً كبيرة لمثل هذه الخدمات. لذلك، وفي ظل عدم وجود شركات تقدم خدمات عسكرية تشابه الخدمات التي تقدمها شركات التوظيف التي تزود سوق العمل بالموظفين الذين يعملون بدوام جزئي أو بعقود، كان على بيبي أن يعتمد على معارفه الشخصيين وعلى شبكة أصدقائه القدامى، واستطاع أن يجمع بعض أعضاء فريقه من العناصر العاملة في القوات الخاصة، أما البقية فكانوا من المتعهدين المستقلين الذين سبق لهم أن خدموا في الجيش وكان على معرفة بهم. «لقد كُلفتُ بتجنيد ستة وأربعين رجلاً من منطقة فورت براغ - ستة وأربعين رجلاً»، كرر بيبي ذلك الرقم زيادة في التأكيد. «توجهت إلى قوات الدلتا وجمعت عشرين شخصاً، ثم تمكنت من جمع عشرة رجال آخرين ممن سبق لهم أن خدموا في الدلتا. وحصلت على بعض الذين خدموا في قوات (سيل). وعدد آخر من الذين خدموا في قوات (سيل) فريق 6. وثمة فرق كبير بين القوات الخاصة وقوات (سيل). ولهذا السبب تجد أن كثيراً منهم لا يرغبون في الانخراط في هذا العمل. فهم -أي الذين خدموا في قوات سيل- يريدون مهمات قصيرة الأجل، ولا يرغبون في المكث ستة شهور من السنة في مهمة ما؛ لذلك كنت أفضل دوماً الانتقاء من القوات الخاصة، وكنت أريهم فيلماً ثم أسألهم إن كانوا يستطيعون القيام بأعمال تشبه ما شاهدوه في ذلك الفيلم، هل يستطيعون السباحة؟ ليس السباحة وحسب؛ بل وإطلاق النار من تحت الماء؟ هل يستطيعون القيام بعمليات ليلية، والركض سبعة أميال؟ وذكرتهم أن الأكسجين في أفغانستان يكون شحيحاً على ارتفاع خمسة آلاف قدم. كما أنني أبحث عن المهارات اللغوية في المتقدمين؛ وليس لدى قوات سيل مَلَكات لغوية. فكل ما يفعلونه هو اقتحام مكان ما، وقتل من فيه من الناس، ثم كتابة تقرير عما حدث، والتحضير للمهمة اللاحقة، أما القوات الخاصة فينزعون إلى اقتحام المكان والمكوث فيه؛ ولهذا السبب كنا نفضل تجنيد أشخاص سبق لهم أن عملوا في القوات الخاصة».

ولا يخفي بيلى فخره بما حققه من إنجازات في مدة قصيرة: لقد أكملت تأليف الفريق؛ لأنني تحدثت إلى القائد جيرى بويكن، وتمكنت من الحصول على عشرين أو واحد وعشرين. وهؤلاء الأفراد يحملون مؤهلات القفز المظلي من مرتفعات شاهقة، ويتمتعون ببنية جسدية قوية. وقد قبلوا جميعاً على الفور في العمل بصفة «غريز خضر» [أي بصفة «متعاقدين» مستقلين مع وكالة الاستخبارات المركزية]، وقد أخضعوا لفحص مصغر لكشف الكذب [البوليغراف]، وجرى استبعاد ثلاثة فقط من بين الثلاثين لأسباب تتعلق بتعاطي المخدرات، وكان علينا أن نتثبت من لياقتهم البدنية أولاً، فأخضعناهم لفحص اللياقة والتحمل، وكان أفضلهم أداءً شخصاً تجاوز الستين من عمره وعمل لدى الوكالة أكثر من خمسة وأربعين عاماً. وبعد ثلاثة عقود من تقييد حركته، أصبح بيلى الآن جاهزاً للتوجه إلى أفغانستان واستغلال فرصته في قتل أخطر أعداء أمريكا.

وفي أثناء المراحل الأولى من الحرب في أفغانستان، نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية زهاء ثمانين إلى مئة من الغريز الخضر [المتعاقدين المستقلين] والغريز الزرق [الموظفين]. ونجح بيلى في جمع زهاء ستين عنصراً من المتعاقدين المستقلين والعسكريين؛ وجاء الباقون من قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، وقد حملوا معهم كمّاً من النقود لشراء ولاء زعماء الحرب والتأثير في زعماء القبائل والقادة السياسيين، وجمع المعلومات حول مواقع العدو، والبحث عن أسامة بن لادن وأعوانه. وكان من مهماتهم استجواب السجناء، ورسم خريطة استخبارية للمنطقة، والتعامل مع الولاءات والتحالفات المتغيرة والمتحولة باستمرار بين المقاتلين الأفغان. وتمكن بيلى واه أن يقنع قيادته العليا في وكالة الاستخبارات المركزية أن بإمكانه تسيق العمل والجهود بين ضباط الوكالة وبين فرق القوات الخاصة. وأهم نتيجة للإنجازات التي حققتها الوكالة والقوات الخاصة في أفغانستان هي فتح باب عهد جديد من العمل المشترك، بحيث تتضافر فيه جهود الجيش، والاستخبارات، والقوات شبه العسكرية، والسكان المحليين، والمرزقة، وحتى المتعاقدين المدنيين نتج عنها قدرات فاعلة قاتلة لم يشهد بيلى مثيلاً لها منذ أيامه في كمبودية، ولاوس، وفيتنام.

وبعد قضاء أسبوع في طشقند لتنظيم أمور الإمدادات والدعم، طار فريق بيلى وهبطت طائرتهم في قاعدة بغرام العسكرية على مقربة من العاصمة كابول، ثم توجهوا إلى فندق

أرينا، وكان جهاز الاستخبارات التابع لطالبان يستخدم هذا الفندق قاعدة له، لكن وبعد ذهاب طالبان، اتخذت وكالة الاستخبارات المركزية من ذلك الفندق مركزاً لعملياتها في أفغانستان. كانت أدوات بييلي في هذه المهمة تضم أدوات عالية التقنية وأخرى بدائية؛ إذ جلب معه حقيبة ظهر فيها ملابس ومعدات تناسب الجو البارد، وبندقية إي كي - 47 وسبعة مخازن للذخيرة، وعدداً كبيراً من القنابل اليدوية، وقاذفة قتال من نوع إتش أند كي عيار 40 ملم. وكان يحمل معه أيضاً جهاز راديو للطوارئ من نوع إي أن/بي آر سي 112، وآلة تصوير رقمية، وجهاز يدوي لتحديد الموقع عن طريق الأقمار الصناعية (GPS)، وبوصلة قديمة، ومديّة ذات يد عظمية من نوع أولد تايمر، وكان يحمل معه كذلك بضعة آلاف من الدولارات في جيبه لمصروفه الخاص.

وفي الأول من كانون الأول/ ديسمبر، الذي كان يصادف عيد ميلاده الثاني والسبعين، توجه بييلي برفقة فريقه الصغير من المتعاقدين المستقلين جنوباً، عن طريق البر من فندق أرينا، ومعهم مجموعة من الحرس الشخصي الجدد الذين جرى توظيفهم قريباً. وقد أعطي فريق وكالة الاستخبارات المركزية أموالاً لتوظيف آلاف من المقاتلين المحليين حين يقتربون من نقطة هدفهم في مقاطعة لوغار الجنوبية، حيث كانوا على موعد مع مفرزة عمليات ألفا من القوات الخاصة 594، وهي المفرزة التي ستولى تدريب المتعاقدين الجدد لخوض المعارك وتقديم عمليات الدعم. وتتألف مفرزة عمليات ألفا من القوات الخاصة من فريق مكون من اثني عشر شخصاً، إضافة إلى مجموعة سيطرة جوية تكتيكية (TACT - P) وذلك لتنسيق الغارات الجوية. وكانت إحدى مهمات بييلي هي التيقن من عدم خلط القوات الخاصة بين الأهداف حتى لا يجري ضرب الأصدقاء الأفغان عن طريق الخطأ.

وبعد تحديد الأهداف، يجري التثبت من عدم وجود أي قوات صديقة أو مدنيين في المنطقة، ثم التيقن من عدم وجود تعارض أو خلط بين الوحدات الأخرى، وأخيراً تصدر الموافقة على القتل، ثم تستدعى الطائرات القاذفة التي تستخدم ذخيرة الهجوم المباشر المشتركة (JDAM<sup>1</sup>)، القنابل الذكية، وتحدد أهدافها عن طريق مُنَاطِر تحديد إحداثيات

1- آلة توجيه تربط بالقنابل الصماء فتحولها إلى قنابل ذكية، وهذه العبارة هي اختصار لكلمة (Joint Direct Attack Munition).

موقع الأهداف، أو باستخدام منظار ذي مؤشر ليزري يسمى سوفلام (SOFLAM) (المُحدد الليزري لقوات العمليات الخاصة)، أو عن طريق «مخاطبة الطيار عبر الراديو» - بإعطائه سلسلة من المحددات المرئية لمساعدته في تحديد الهدف بدقة. تثبت صواريخ هيل فاير (نار جهنم) على متن طائيرة بريديتر يوإي في (طائيرة دون طيار تسيّر عن بعد)، وتعطى الرخصة للقتل عن بُعد للأشخاص الذين يديرون أجهزة التحكم من بعد لتلك الطائرات مستخدمين ذراع قيادة وأزرار إطلاق النار كالتى تستخدم في ألعاب الفيديو. وكان ذلك كله يجري عبر موجات الراديو، ويجلس الرجل الذي يضغط على أزرار إطلاق النار في عربة مقطورة للقيادة مزودة بمكيف تبريد هوائي على بعد آلاف الأميال.

ومع أن تلك القوات كانت جاهزة لتقديم تنسيق فاعل لغارات جوية على أهداف معينة بدقة، إلا أن يبلي لم يكن يشعر أنهم كانوا يتمتعون بالدعم الكافي، ذلك أن أكثر القوة الجوية الأمريكية كانت مركزة في مقاطعة باكتيا: «لقد أمضينا هناك عشرين يوماً، ثم تحولنا إلى غارديز. لم تكن طالبان تدري ما يدور حولها، ولم نحصل على التغطية الجوية المبتغاة، فقد كانت القوة الجوية في تورا بورا، ولم يكن بمقدورنا القيام بالمعركة على الوجه الذي كنا نرغب فيه».

ومن حسن الحظ أنه لم تكن هناك حاجة إلى معارك طاحنة؛ لأن طالبان كانت تتسحب بسرعة في طول البلاد وعرضها دون إبداء أي مقاومة، وقد فروا من غارديز حين دخل يبلي وفريقه في قافلة عسكرية تضم خمساً وعشرين مركبة في الرابع من يناير، عام 2002، وأخذوا مواقعهم في مجمع للمباني شرقي المدينة. وكانت مهمتهم تتلخص في تشكيل ما أطلق عليه «التحالف الشرقي» لقوات المرتزقة، على الرغم من عدم وجود شيء من هذا القبيل. أما المهمة الأخرى فكانت جمع أكبر قدر من المعلومات الاستخباراتية بأسرع وقت ممكن - أي إقامة شبكة من المخبرين من المواطنين المحليين، وإلقاء القبض على أنصار طالبان ومطاردتهم بعد أن يحدد لهم الجواسيس المستأجرون. وقد أقامت مجموعة يبلي مركزاً لهم في تجمع للمباني محاط بجدار من الطين، وأصدر يبلي

وأوامره لحرّاس من الأفغان بتهديد أي شخص من وسائل الإعلام يحاول الاقتراب من مسافة ثلاثة كيلومترات.

كان الممر الجبلي بين غارديز وخوست يعج بعناصر طالبان، وبدأ فريق يبلي بتعقب واصطياد مجموعات من المقاتلين، واستخدموا في تلك المهمة أجهزة اعتراض موجات الهاتف لتحديد مواقع تلك المجموعات، إضافة إلى طائرات بریدترز التي تعمل دون طيار وتوجّه من بعد والمزودة بأجهزة رؤية ليلية، والعناصر المنشقة عن طالبان، إضافة إلى أحدث أجهزة الاستطلاع والمراقبة التي تلتقط صوراً بالأشعة تحت الحمراء. وأمضى فريق أو دي إي 594 أوقاتهم في تدريب الأفغان المتعاونين معهم على استخدام الأسلحة، والمدفعية، وبعض التكتيكات الخاصة بالمجموعات الصغيرة. أما أوقات الفراغ فكانوا يستمعون فيها إلى قصص يبلي حول كمبوديا ولاوس في عهد المزدهر حين كانت وكالة الاستخبارات المركزية تعمل مباشرة مع القوات الخاصة وحين كانت ملاحقة الأعداء وقتلهم عن طريق جيوش المرتزقة هو الإجراء الاعتيادي المتبع.

وبدخول الخامس عشر من كانون الثاني / يناير، وصل عدد القوات الأفغانية التي تقاتل نيابة عن الولايات المتحدة زهاء ثلاث مئة أفغاني، وقدم الجنرال لودين - وهو قائد بشتوني عمل مع وكالة الاستخبارات المركزية في الثمانينيات، ابنه متطوعاً للعمل مع القوة الأمريكية، وجاء ابنه برفقة ثلاثين من أصدقائه. «إن من الصعب الحصول على معلومات جيدة من زعماء الحرب الأفغان الأفكين أبناء الفاعلة. لقد كنا نتعامل مع مجموعة من الكذابين الطغام، وكان ذلك الرجل العجوز [الجنرال] لودين هو زعيم المنطقة، وكان ولده ضياء لودين يعمل برتبة نقيب لدينا، وكان في منتهى الصراحة حول دوافعه: «إنني هنا من أجل المال، وأنا لا أحب الأشخاص الموجودين في بانجشير<sup>1</sup> ولا أحب سوى أبناء قبيلتي».

وقام زعماء القبائل في غارديز بتقديم زهاء مئة من الرجال، واثنين من القادة هما كبير وضياء عبد الله، وكانا على رأس كتيبة من مئة وسبعين من المقاتلين. ويصف يبلي

1- عاصمة إقليم باكتيكا في أفغانستان.

القائد ضياء عبد الله بأنه سيئ خسيس غشاش، وهو من حلفاء أمريكة، قد تلقى كثير من الأموال، وهو شخص لا يمكن الوثوق به بأي حال من الأحوال. وبدأ الأفغان الذين يعملون تحت قيادة كبير من فورهم بالتصرف على نحو يثير الريبة والشك، وشعر فريق بيلى بالخطر يحيط بهم.

كان بيلى يحسن التعامل مع المجرمين وزعماء الحرب، غير أنه بات واضحاً أنهم لن يتمكنوا من القبض على ابن لادن في هذا العالم الداجي القائم من الولاءات المتحوّلة والمتقلبة والمزدوجة. وتقول وكالة الاستخبارات المركزية: إنها وزعت زهاء 70 مليون دولار على زعماء الحرب والقبائل لتأمين الفوز في المراحل الأولية من الحرب في أفغانستان، وهي ترى ذلك صفقة رابحة على الرغم من أن الولاء الذي اشتري بتلك الأموال لم يفض إلى قتل ابن لادن أو القبض عليه ولا حتى على أعوانه المقربين.

كان من بين الأفغان الذين وظفتهم وكالة الاستخبارات المركزية وتولّت القوات الخاصة تدريبهم شخصان هما: زاحم خان وباشا خان زدران، وهما من زعماء الحرب الذين تبدو عليهم هيئة قطاع الطرق، وقد أقدم هذان الشخصان على طلب القيام بغارة جوية تستهدف وفداً من زعماء قبائل البشتون كانوا في طريقهم لتهنئة حامد كرازي في كابول. وكانت تلك المخادعة وأصناف المخاتلة والنفاق هي السمة المميزة لعملاء أمريكة من الأفغان الذين كانوا يحرصون على انفلات المجاهدين العرب، والباكستانيين، والأوزبك، من قبضة الأمريكيين، وعلى عرقلة جهود العثور على ابن لادن.

ويتذكر بيلى المشقة التي لقيها في أفغانستان، إلا أن أفضل ذكرياته تبقى مع الجيل الجديد من المتعاقدين الأمنيين والقوات شبه العسكرية الذين عرفهم هناك. ما لاحظته هو أن هؤلاء الناشئة من القوات شبه العسكرية هم أكثر قوة، وأفضل تدريباً، وأقدر على التواصل، وأفضل تجهيزاً، ويتعاملون بإخلاص ومن غير موارد، ويتفوقون على أقرانهم من المدرسة القديمة... ولكن استقلاليتهم في اتخاذ القرار في الميدان أصبحت شبه منعدمة: فوسائل الاتصال هذه الأيام هي في غاية الفاعلية، وتنساب القرارات عبر السلم القيادي بكل سهولة ويسر.

في أيامي الأولى قبل توافر أجهزة اللاسلكي المتقدمة وتقنية الاتصالات الدقيقة، كانت القرارات تصدر عن القادة الميدانيين على الأرض دون أي خوف من غضب القيادات العليا التي تبعد مئات الأميال عن ساحة الوغى.

ومما زاد من خيبة أمل بيلى، أن المدة التي أمضاها في أفغانستان لم تضعه وجهاً لوجه مع خصمه القديم، أسامة بن لادن. وقد تبين أن المواطنين المحليين الذين عملوا معه كانوا أكثر حرصاً على أخذ ماله وأشدّ تلوّكاً في تعقب العدو، وكان يؤثر حرارة غابات كمبوديا على برودة جبال أفغانستان التي كانت تثير الألم في مفاصله إذ نال منه الوهن، وبدأ يفكر أنه - كما قال هو-: قد بلغ من الشيخوخة حدّاً يجعله غير مؤهل لهذا الأمر. وبعد أن أمضى شهرين في أفغانستان، أن أوان بيلى واه؛ لأن يقول: وداعاً لفريق أو دي أي 594، ليقتصد موطنه في منتصف شهر كانون الثاني/يناير، وسيتولى شخص آخر مهمة القبض على خصم بيلى اللدود.

### بداية عهد بلاك ووتر

بدأ استخدام المتقاعدين المستقلين في الحرب على الإرهاب مع السبعين شخصاً الذين جندهم بيلى واه؛ إذ شكلوا قوة شبه عسكرية ذات غرض محدد، مؤلفة من جنود سابقين ذوي مراس وخبرة، وتتمتع بتسليح جيد، وسرعة في الانتشار. وقد أدت هذه القوة دوراً حيوياً في مساعدة الدفاعات الأمريكية على التكيف مع الظروف غير التقليدية؛ وبذلك تكون الولايات المتحدة قد عهدت بالمسؤولية عن بعض جوانب الحرب على الإرهاب إلى المتقاعدين العسكريين والمرترقة من المواطنين المحليين، كما سبق لها أن فعلت في لاوس وغيرها من الصراعات التي خاضتها سراً. وبعد القضاء على طالبان، عملت الولايات المتحدة على إقامة شبكة استخبارية واسعة في أفغانستان وباكستان للمساعدة في القبض على ابن لادن وقلول القاعدة وطالبان. وقد كان قرار وكالة الاستخبارات المركزية في استخدام شركة خاصة لتعزيز فرق الحماية الشخصية للضباط التابعين للوكالة عاملاً محفزاً لقيام شركة بلاك ووتر بأول محاولة لخوض غمار صناعة الأمن الخاصة. وكان العقد الأولي - الذي بلغت قيمته 5.4 ملايين دولار ومدته ستة شهور - بداية تحوّل شركة بلاك ووتر من مجرد مصنع خفيف للصُّلب، وأهداف الرماية إلى شركة عملاقة في مجال الأمن.

قبل الحادي عشر من سبتمبر، كان إريك برنس يسعى جاهداً لجعل نشاطه التجاري يدر ربحاً. ومع أن برنس نشأ في عالم من التوسع التجاري واندماج الشركات، إلا أن النموذج الأصلي الذي بنيت عليه بلاك ووتر كان موجهاً لتحقيق اهتمامات وميول برنس أكثر منه لتحقيق الأرباح. وفي عام 1997، بدأ إريك العمل في بناء مركز بلاك ووتر للتدريب على قطعة أرض تبلغ مساحتها ستة آلاف أكر، وفيها ميدان للتدريب على إطلاق النار مصمم لتقديم تدريب متخصص لأفراد الجيش والشرطة، ولقد كان نمو نشاطه بطيئاً. ومنذ عام 1998 حتى عام 2000، لم يعمل في دائرة التدريب سوى ستة موظفين، وكان برنس يلجأ بين الحين والآخر إلى أخذ المال من جيبه الخاص لدفع رواتب الموظفين. وفي عام 2001، بدأ برنس بإنتاج أنظمة أهداف بلاك ووتر؛ وهي أهداف معدنية تتميز بخاصية إعادة التنضيد الذاتي، فنجح في تحقيق بعض الأرباح، غير أن ظروف العمل لم تكن مواتية تماماً حين اقترح عليه جيمي سميث، أحد أوائل الذين بدؤوا العمل معه، أن ينشئ قسماً جديداً متخصصاً بتقديم خدمات الحراسة والأمن.

يملك سميث خبرة سابقة من عمله مع وكالة الاستخبارات المركزية، وكان يعمل مدرباً في بلاك ووتر بين الحين والآخر لتأمين رسوم دراسته الجامعية في كلية القانون، ثم أنهى عمله في بلاك ووتر بعد تخرجه ليبدأ ممارسة مهنته محامياً متخصصاً في قضايا الضرائب عام 2001. وكان برنس يرغب في استبقائه موظفاً لديه، غير أن سميث كان لديه تصور أكبر. لقد رأى سميث سوقاً جديدة في توظيف رجال مدرّبين على نمط الحرس الشخصي الذي يرافق كبار الشخصيات في وزارة الخارجية الأمريكية، وأراد سميث أن ينشئ قسماً خاصاً لهذه الخدمة بحيث يكون لديها قابلية للنماء والتوسع. ولم يتحرك برنس لدعم هذه الفكرة دعماً كاملاً إلا بعد وقوع هجمات 11 أيلول/ سبتمبر. واستدعى سميث في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2001 ليعرض عليه منصب نائب رئيس في شركة بلاك ووتر، وبحلول شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2002، انتقل سميث إلى المقر الرئيس للشركة في مويوك بولاية نورث كارولينا.

وفي ظل انعدام سبب لتدريب قوة من المتعاقدين الأمنيين قبل تأمين عمل لهم، اقترح سميث البدء بمحاولة طرق باب معارف وأصدقاء بحثاً عن فرصة. وأخبر إريك سميث

أن صديقاً له ممن انضموا إلى وكالة الاستخبارات المركزية قريباً يمكن أن يكون في موقع مُواتٍ في دفع خطتهما إلى الأمام. وهذا الصديق هو بَرِّي كرونغارد الذي عيّن في منصب المدير التنفيذي لوكالة الاستخبارات المركزية في آذار/ مارس من عام 2001. وكان يعمل قبلها مستشاراً لمدير الوكالة بضع سنوات، غير أن خلفيته المهنية الفعلية هي في مجال الاستثمارات المصرفية، وقد عرف إريك والثروة التي تعود لأسرة برنس حين كان يعمل في هذا الحقل.

جاء توقيت الحركة التي أقدم عليها إريك إما بمحض المصادفة أو وفق حسابات مدروسة؛ لأن المخصصات الأمنية لوكالة الاستخبارات المركزية قد تعرضت بعدها للتقليص. وبعد ستة أشهر من هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، كان موظفو قسم الرد الأمني العالمي التابع للوكالة يعملون فوق طاقتهم، وكانوا بحاجة ماسة إلى توفير الحماية للمحطة الجديدة التي أقاموها في كابول، وقد سبق لوكالة الاستخبارات المركزية أن تعاقدت مع شركات لتأمين الاحتياجات السرية من قبل، غير أنها قلما عهدت إلى شركات خاصة القيام بالمهمة التي يتولاها ضباطها في الميدان. وبعد الاتصال الذي أجراه برنس مع الوكالة بحثاً عن فرص لمشروعه التجاري الجديد، استطاعت بلاك ووتر تأمين عقد بقيمة 5.4 ملايين دولار مدّته ستة أشهر. وقد صنف العقد تحت فصل الضرورة الملحة والطارئة في ميزانية الوكالة. وهذه الصفة «الملحة والطارئة» تلغي متطلبات الإعلان عن الخدمة والتقدم بمناقصات تنافسية من الشركات الأخرى؛ لذلك جرى إحالة هذا العقد مباشرة وفوراً إلى بلاك ووتر.

تطلب العقد «الأسود»<sup>1</sup> الذي منحته وكالة الاستخبارات المركزية لشركة بلاك ووتر ثمانية عشر متعهداً أمنياً إضافياً إلى قائد أو قائدين. ومع أن العمل سيكون محفوظاً بالمخاطر، إلا أن بلاك ووتر والمتعهدين الأمنيين المستقلين، الذين استخدمهم برنس كان لديهم ما يكفي من المحفزات المالية لخوض تلك المخاطرة المحسوبة. وقاس جيمي سميث الأجر الذي تتقاضاه بلاك ووتر من وكالة الاستخبارات المركزية على الأجر الذي

1- يشار إلى أن بلاك ووتر تعني الماء الأسود، ومن معاني السواد في اللغة الإنجليزية «السرية»، وقد وضع المؤلف كلمة أسود بين قوسين للإشارة إلى المهمة السرية التي ستولاها شركة بلاك ووتر، مع الإشارة إلى اسم الشركة.

تتقاضاه شركة دينكورب من وزارة الخارجية للقيام بعمل مشابه فوجد أن بلاك ووتر تدفع للمتعهدين أجراً مقداره 550 دولاراً في اليوم، وهو أجر يزيد قليلاً على ما تدفع للمدربين في موبوك - غير أن بلاك ووتر تتقاضى من وكالة الاستخبارات مبلغ 1.500 دولار عن كل رجل في اليوم. وسبب هذه الزيادة البالغة ثلاثة أضعاف هو إدخال مصاريف التدريب، والنقل، وغيرها، ومع ذلك يبقى فيها مجال واسع للربح. ويمكن للمتعاقدين الفردي أن يحصل على أجر قدره 18.500 دولار شهرياً، في حين أن بلاك ووتر تحصل منه على 30.000 دولار في الشهر مضروباً بعدد المتعاقدين ليصل المجموع إلى 900.000 دولار في الشهر. ومع أن هذا العقد كان عقداً صغيراً نسبياً، إلا أنه يظهر أن بإمكان القطاع الخاص تعزيز قدراته في وقت الحاجة. وفي غضون ثلاث سنوات، نمت بلاك ووتر من هذه الوظيفة المحددة لتحتل المرتبة الثانية من حيث الحجم من بين الشركات الخاصة التي تقدم خدمات أمنية، بعائدات تصل إلى ثلاثة أرباع مليار دولار في العام.

في الوقت الذي فاز فيه بعقده الأول مع وكالة الاستخبارات المركزية، كان إيريك يعاني من مشكلة وحيدة: أن إمبراطوريته الأمنية تتكون من شخصين فقط هو وجيمي سميث. أدرج سميث إعلاناً في صحيفة واشنطن بوست ضمن قسم التوظيف، وعمل الاثنان بكل ما أوتيا من قوة في تأليف فريقهم الأول. وكانت المتطلبات الأساسية للعمل في هذا الفريق هي: حصول المتقدم على تصريح الاطلاع على مستوى (سي إس أي) من المعلومات السرية، والخبرة في العمل في محيط معاد، والإحاطة بالمتطلبات الصارمة لتدريب الحراس الشخصيين في وزارة الخارجية. وفي غضون أسابيع، تمكنت بلاك ووتر من توظيف، وفحص، وتدريب عدد كافٍ من المتقدمين لتنفيذ العقد الذي أبرمته مع وكالة الاستخبارات المركزية.

توجه الفريق الجديد إلى أفغانستان في شهر أيار/ مايو من عام 2002، وحطت طائرتهم في قاعدة بغرام الجوية. وتوجه إيريك برنس - مالك شركة بلاك ووتر، وهو أيضاً رئيسها التنفيذي - إلى أفغانستان وأمضى أسبوعين هناك، ظاهرياً ليعمل بصفة متعهد، مع أن سميث وصف رحلة إيريك القصيرة بأنها أقرب إلى أداء دور شبه عسكري لوكالة الاستخبارات المركزية.

كان على أكثر الفريق المكث في العاصمة الأفغانية طوال مدة العقد، لتقديم الأمن والحماية للجزء الذي خصصته وكالة الاستخبارات المركزية لعملياتها من مطار كابول ومركز عملياتها في فندق أرينا في كابول. وكانت وظيفة الفريق التابع لبلاك ووتر بصفتهم جزءاً من أركان الرد العالمي - وهو وصف تطلقه وكالة الاستخبارات المركزية على الاحتياطات الأمنية المشددة التي تتطلبها للعمل في المناطق المعادية - هي حماية المباني وضمان سلامة تنقل ضباط الاستخبارات إلى الاجتماعات بأمان والعودة. وأرسل أحد من المتعاقدين للمساعدة في مهمة محددة وجيزة في منطقة هيرات، وطلبت الوكالة أن يتمركز اثنان من المتعاقدين في مركز حدودي صغير في بلدة سكن لحماية ضباط الوكالة الذين يعقدون اجتماعات سرية مع زعماء القبائل في المنطقة. وطار جيمي سميث برفقة إريك جنوباً من كابول لتنفيذ العقد في سكن. وكان على سميث أن يمكث شهرين، أما إريك فغادر القلعة المبنية من الطين بعد أسبوع عائداً إلى كابول ليتحدث إلى المسؤول عن عمليات الوكالة هناك.

تتجه رحلة الطائرة المروحية إلى سكن باتجاه الجنوب من كابول، ثم ترتفع عشرة آلاف قدم لتجتاز السلسلة الجبلية التي اشتهرت بعد عملية أناكندة، ثم تهبط متخطية مجعماً كان يستخدمه أسامة بن لادن في السابق لتحط في قلعة يطلق عليها بعضهم قلعة أباتشي، وهي قلعة كبيرة مبنية من الطين على مساحة قائمة مغطاة بالغبار في مدينة سكن على بعد ثلاثة أميال من الحدود الباكستانية. وتعدُّ وكالة الاستخبارات المركزية هذه المنطقة «منطقة هندية»<sup>1</sup> واختارت هذه النقطة بالذات؛ لأنها أبعد نقطة يمكن أن تصلها طائرة

1- ليست النسبة هنا إلى الهند الدولة المعروفة، بل إلى الهنود الحمر. والمناطق الهندية في الأصل هي المناطق التي حددتها الحكومة الأمريكية لإقامة الهنود الحمر الذين أجبروا على ترك مساكنهم وقراهم عام 1834. وأعطيت خمس قبائل متمدنة - وسميت متمدنة؛ لأنها كانت تبني نمطاً غربياً في الحياة والتجارة تمييزاً لها عن القبائل الهندية الأخرى التي تمسكت بعاداتها الأصلية - من الهنود الحمر التي منحت شبه حكم ذاتي مع احتفاظ الحكومة الأمريكية بالسيادة عليها. ولكن حالهم لم تدم طويلاً؛ إذ تلاشت هذه المناطق بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وزحف مستعمرات السكان الجدد إلى أن ضمت بقيتها الباقية إلى ولاية أوكلاهوما، ولم يعد للهنود الحمر فيها عين ولا أثر. ووجه الشبه في هذا التشبيه هو الحكم الذاتي للقبائل الأفغانية في تلك المناطق مع بقاء السيادة عليها للأمريكيين.

مي 17- بيغاسيس من بغرام، وتعود دون الحاجة إلى التزود بالوقود. والسبب الآخر لشهرة (شكن) هو أنها أول قاعدة للمدفعية الأمريكية تقام بعد حرب فيتنام. ويوفر فصيل من قوات الرينجرز القوة النارية ويقومون بمهمة الحراسة الليلية، ويعمل من تلك القاعدة كتيبة (أودي إي) التابعة للقوات الخاصة، وقوة الرينجرز، وفريق صاعقة بريطاني، وقوات من الدلتا، ينطلقون من تلك القاعدة في مهمة مشتركة تسمى الوحدة الحربية رقم 11- ومهمة هذه المجموعة هي البحث عن ابن لادن، وقلب الدين حكمتيار، والملا عمر، وغيرهم من الأهداف النفيسة، ومع تواتر الشائعات عن تنقل ابن لادن بحرية بين الحدود الباكستانية الأفغانية في المناطق القبلية، ازداد التوتر في تلك القاعدة.

ومع أن قلعة الأباتشي كانت أبعد القواعد العسكرية الأمريكية وأكثرها عزلة، وكانت تتعرض لهجمات الأعداء الذين كانوا يباغتونها ثم يعودون مسرعين عبر الحدود الباكستانية، إلا أن الجنود في الحصن كانوا يمضون وقتهم في أداء التمارين الرياضية، وتدبير شؤون المنزل، والاستلقاء تحت أشعة الشمس. وحين كانت تأتي إخبارية من أحد الجواسيس المحليين، ينطلق المتعهدون لتحديد مكان آمن للاجتماع - يكون في العادة ممرًا مغلقًا مؤدياً إلى نبع ناضب، حيث يمكن لشخص أن يراقب الطريق من على رابية مرتفعة فيما يغلق الآخرون المدخل، ثم يتوجه الضابط المعني بالأمر بصحبة مترجمه في السيارة إلى المكان المخصص لأخذ المعلومات ودفع المقابل، وحين يقترب المخبر المحلي، يخرج المتعهد الذي يغلق الطريق لتفتيشه، وبعد ذلك يرسله إلى الاجتماع.

ومن حسن الحظ أن أكثر العمل يجري على نحو اعتيادي، غير أن الشعور الضمني بكون المرء يحيط به ويراقبه عدو غير عادي، لا يمكن التنبؤ بأفعاله، غير مرئي، متقلب، متغير، لا شكل له، كل ذلك يجعل من قدرة التحمل العقلية التي يتطلبها هذا العمل أمراً صعباً. واكتشف إريك وجيمي فوراً أنه لا يمكنهما الوثوق بالسكان المحليين، ولا يمكن افتراض صحة أي شيء يأتي من طرفهم، وأن عليهم ألا يضعوا أسلحتهم وألا يتساهلوا في مستوى الحيطة والحذر تحت أي ظرف من الظروف؛ لأن الأحداث يمكن أن تتغير في أثناء ثوان معدودة. وقبل وصولهما إلى شكن بوقت قصير، تعرضت قافلة تابعة للقوات الخاصة لكمين ذهب بحياة ضابط الاتصالات، وكان من الواضح أن الدليل الأفغاني خان

المجموعة؛ لأن العربة الأمامية للقافلة التي كان يستقلها الدليل لم تتعرض للإصابة في حين أن باقي العربات رشقت بنيران الكلاشنكوف.

في هذه البيئة المشبعة بالشك والخوف والارتباب، بقيت المجموعة متحفزة على أعصابها، وأخذت الأوهام تنتشر في عقولهم. ويتذكر جيمي، أنه في أحد الأيام، بينما كان يقوم بعملية استطلاع لتحديد نقطة للالتقاء؛ فيقول: كنا نسوق عربتنا في أكثر الشوارع اغبراراً على وجه الأرض، كان ذلك الغبار أشبه شيء بمسحوق بودرة الطلق، وكان كثيفاً في الهواء لدرجة أنني اضطررت إلى التوقف أكثر من مرة لعدم تمكني من رؤية الطريق أمامي. وحين كنا على الطريق القديم، رأيت ثلاث حافلات من نوع تويوتا مملوءة بالرجال المدججين بالسلاح تسير صوبنا مستخدمين شارعاً جديداً موازياً للشارع الذي كنا نسير فيه؛ فقمنا بالالتفاف حول زاوية تغطيها بناية ثم أمعنا النظر حولنا لنرى حافلات التويوتا، فلم نجد لها أثراً. لم يكونوا سراباً، ولا يمكن أن يكونوا قد اختفوا فجأة عن وجه الأرض، وكان من غير المعقول أنهم لم يهاجمونا. إنها أفغانستان، لا شيء فيها يسير بحسب العقل.

أمضى سميث مدة العقد كاملة في أفغانستان، شهرين منها في سكن، والبقية في كابول. أما إريك، فمع قصر المدة التي أمضاها هناك، إلا أنها بعثت فيه نشاطاً وحيوية. وقد أحب بيئة الخديعة والإثارة إلى حد دفع هذا الشاب -الذي ما زال في منتصف ثلاثينيات عمره، الذي يتولى إدارة ثروة أسرة برنس- إلى التفكير بالانضمام إلى قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية والولوج إلى عالم العمليات السرية ضمن القوات شبه العسكرية.

قد يستغرق الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية عدة شهور، غير أن عملية إجراء المقابلات المطوّلة والشاقة في العادة لا بد أنها سرّعت لمصلحة برنس. وبحلول شهر تموز/ يوليو، طلب إريك من سميث أن يقدم له النصيحة بشأن اجتياز فحص البوليفراف لكشف الكذب - وهو العقبة الأخيرة التي يجب أن يجتازها أي متقدم يسعى إلى الحصول على عمل مع الوكالة. كانت نتيجة الفحص الأول الذي أجراه إريك «غير حاسمة»، فكان عليه أن يعيد الفحص. ونصحه سميث بأن هناك عدداً من العوامل التي يمكن أن تكون وراء

تلك النتيجة، ورأى أنها ربما تكون بسبب حالته العصبية. وعلى الرغم من أن إريك قد سبق له أن عمل مع الوكالة بفاعلية في عمليات سرية بصفة متعاقد، فإنه في النهاية يمكن أن يمنع من العمل بصفة «غريير أزرق» (موظف رسمي) إذ كان يفتقد بعض المهارات الأساسية. بعد هذا عاد إريك ليركز على إنماء شركة بلاك ووتر والنهوض بها.

لم يجدد عقد إيريك برنس الأول بعد انقضاء مدة الشهور الستة، وكان السبب الذي قدمه المسؤولون الحكوميون هو أن بلاك ووتر لم تستطع الاحتفاظ بأعداد كافية من المستخدمين بحسب شروط العقد، ومع ذلك انتشرت شائعات في أوساط صناعة الأمن أن وكالة الاستخبارات المركزية اكتشفت وجود تعارض في المصالح فيما يخص بزي كرونغارد. ومع ذلك لم يكن لهذه الخسارة أي آثار سلبية طويلة المدى على عمل بلاك ووتر؛ لأنها وكما يذكر الرئيس الجديد للشركة غاري جاكسون، قد استقرت على نمط يقضي بأن تقوم بقرابة 15% من نشاطها في عقود «سوداء» - ويفترض أنها مع وكالة الاستخبارات المركزية- وفي هذه الأيام فإن تلك النسبة تعني دخلاً سنوياً يقارب 100 مليون دولار للشركة.

يمكن عدّ أول عقد بين وكالة الاستخبارات المركزية والشركة أنه أول نقطة تحوّل تشير إلى الاتجاه الذي تسير فيه صناعة الأمن الخاص، وربما نكون أكثر دقة لوقلنا إن نقطة التحول التي تشير إلى الاتجاه الذي تسير فيه الحرب على الإرهاب في هذه الصناعة. إن حالة الحرب السريعة والمفاجئة التي أعقبت هجمات 11 أيلول/ سبتمبر قد استغرقت موارد الحكومة الأمريكية بما يتجاوز ما يمكن توقعه في العاشر من أيلول/ سبتمبر عام 2001، وهو ما أدى إلى خلق فرص أمام الشركات الخاصة لتعويض النقص الذي طرأ على مصادر الأمن الحكومية. والمثال الآخر على حجم هذه الطفرة التي شهدها قطاع الشركات الأمنية الخاصة، أن جيمي سميث حاول، منذ أن ترك العمل في بلاك ووتر، أن يركب هذه الموجة من الفرص السانحة، فقام بتأسيس شركة خاصة به أثبتت نجاحها حتى الآن، وهي مجموعة سميث الاستشارية للمخاطر الدولية<sup>1</sup>، متخذاً من فيرجينيا بيتش مقراً لها.

1- SCG - Smith Consulting Group International Risk.

إن أهم مصدرين حكوميين طويلي الأمد لعمل المتعاقدين المستقلين في المجال الأمني وشبه العسكري في أفغانستان هما البحث عن أسامة بن لادن، وتوفير الحماية الشخصية للرئيس حامد كرازاي. وفي سعبي إلى التجوال في عالم المتعهد الأمني الخاص، قمت بوضع ترتيبات لزيارة صديق قديم لي كان يعمل في القوات الخاصة، وهو الآن مكلف بحماية حياة حامد كرازاي. وفي أثناء وجودي في أفغانستان، كنت أمل أن أشاهد تقدم عملية البحث عن ابن لادن.

وبعد سنتين من بدء الحرب، تجولت في أفغانستان؛ لكي أشاهد كيف تغيرت الحرب على الإرهاب.

